

عبادتنا الليتورجية هي ترتيب عقائدنا الإيمانية (الجزء الثاني)

المحتويات

خامساً: النصوص الليتورجية والكتابية وبعض الكتابات الآبائية عن الكرازة بالخلاص في الجحيم

١	مقدمة
٢	(١) نزول المسيح إلى الجحيم في نصوص الصلوات الليتورجية
٣	(٢) نزول المسيح إلى الجحيم في النصوص الكتابية
٤	(٣) نزول المسيح إلى الجحيم في بعض كتابات آباء الكنيسة
١٠	وفي الختام

خامساً: النصوص الليتورجية والكتابية وبعض الكتابات الآبائية

عن الكرازة بالخلاص في الجحيم

مقدمة

إنَّ خلاصَ الإنسان، كان معروفاً عند الرَّبِّ من قبل تأسيس العالم^(١). والخلصُ الذي أكمله المسيح بالصَّليب والقيامة، صار متاحاً لكلِّ من يؤمن بالمسيح، سواءً للسَّاكنين على الأرض، أو للذين كانوا في الجحيم.

فبعد خلقه الإنسان على صورة الله ومثاله، وسقوط الإنسان من حضرة الله، بسبب المخالفة، كانت مراحل الخلاص هي: التَّحسُّد الإلهي، الفداء بموت الصَّليب، التَّنْزول إلى الجحيم، القيامة من الموت، الصُّعود إلى السَّماء، والجلوس عني يمين الآب في السَّمَاوِيَّات. ولقد سمعنا كثيراً عن مراحل هذا الخلاص العظيم، باستثناء موضوع نزول المسيح إلى الجحيم، كمرحلة أساسية من مراحل الخلاص، والذي لا نعرف عنه إلا القليل.

إذاً حديثنا الآن هو عن جانب من جوانب سرِّ موت المسيح، وهو نزوله إلى الجحيم بالصَّليب، ليكرز بالخلاص والعثق لكلِّ المأسورين فيه، والمقيدون بالأغلال الحديدية، والمُغلق عليهم خلف الأبواب التُّحاسية، منذ آدم الإنسان الأوَّل، ليعتق من يقبل كرازته بالخلاص والتَّجاة. ويُطلق إلى الحياة، الجالسين في الظُّلْمَة وظلال الموت، باستثناء الذين أحبوا الظُّلْمَة أكثر من النُّور، لأنَّ أعمالهم كانت شريرة، هؤلاء الذين رفضوا إشراقه نور الكلمة عليهم.

فإن كُنَّا نعلمُ بعض العلم، عن خلاص المسيح الذي أكمله لنفوس الذين رقدوا قبل يوم الصَّليب، ومن بينهم من كانوا في الجحيم، انتظارا ليوم الخلاص بالصَّليب، ولكن ماذا أيضاً عن خلاص المسيح للذين ماتوا بعد يوم الصَّليب، ولم يسمعوا أو يعرفوا شيئاً عن المسيح وخلاصه؟ وما هو دور الكنيسة في هذا الموضوع؟ هذا هو الموضوع الذي سأشارِككم فيه اليوم، وهو الموضوع الذي شغل حيزاً غير قليل من نصوص صلواتنا الليتورجية ولاسيماً في القُدَّاس الإلهي.

(١) نزول المسيح إلى الجحيم وفتحه لباب الفردوس في نصوص الصلوات الليتورجية

القُدَّاس الباسيلي

- "نزل إلى الجحيم من قِبَل الصَّليب".
- "فَتَحَ باب الفردوس، ورددَ آدم إلى رئاسته مرَّةً أُخرى".
- "من قِبَل صليبه وقيامته المقدَّسة، ردَّ الإنسان مرَّةً أُخرى إلى الفردوس".
- "... لكي المسيح إلهنا ينيح نفوسهم أجمعين في فردوس النِّعيم" (إبروسة الشَّماس عن الرَّاقدِين).

القُدَّاس الغريغوري

- "أعطيت إطلاقاً للذين قُبِضَ عليهم في الجحيم".
- "فَتَحَت لي الفردوس لأتَّعم. وأعطيتني علم معرفتك. أظهرت لي شجرة الحياة، وعرفتني شوكة الموت".

القُدَّاس الكيرلسي

- "اللَّهُم يا من تجثو له كلُّ رُكبة، ما في السَّموات، وما على الأرض، وما تحت الأرض" (٢).

صلوات القسمة

- "يا يسوع المسيح ذا الاسم المُخلِّص، الذي بكثرة رحمته، نزل إلى الجحيم، وأبطل عزَّ الموت".
- "هذا هو الذي نزل إلى الجحيم، وأبطل عزَّ الموت، وسي سبباً، وأعطى النَّاس كرامات".
- "أيها السيِّد الرَّبَّ الإله ضابطُ الكلِّ، أبو ربِّنا وإلهنا ومُخلِّصنا يسوع المسيح، الذي من قِبَل صليبه، نزل إلى الجحيم، ورددَ أبانا آدم وبنيه إلى الفردوس".
- "ونحن أيضاً الجلوس في الظُّلمة زماناً، أنعم لنا بنور قيامته من قِبَل تجسُّده الطَّاهر".

تسبحة نصف الليل

- "العساكر الملائكيَّة، بُهتوا عندما رأوك حُسبت مع الأموات. وحطَّمت قوَّة الموت أيها المُخلِّص، وأقامت آدم معك، وعتقته من الجحيم".
- "يا من لبستَ لباس السَّمائيِّين، حتى سترت آدم بلباس النِّعمة، ورددته مرَّةً أُخرى إلى الفردوس، موضعَ الفَرَح، ومسكن الصِّديقين".
- "مضيت إلى الجحيم، وأصعدت السَّبي من ذلك المكان، وأنعمت علينا مرَّةً أُخرى بالحرية كإله صالح".
- "فَتَحَ باب الفردوس، ورددَ آدم إلى رئاسته مرَّةً أُخرى".

من تسابيح الكنيسة

- "سبي الجحيم سبباً، وحطَّمت أبوابه الثُّحاس، وكسَّرَ متاريسه الحديد كسراً، وأبدل لنا العقوبة بالخلاص، وأعاد آدم إلى الفردوس، بفرح وبهجة ومسرَّة، هو وبنيه الذين كانوا في الجبوس، محلِّ النِّعيم، دُفعةً أُخرى".

طرح السَّاعة التَّاسعة من يوم الجمعة العظيمة

- "... الله الكلمة بكماله، مضى إلى الجحيم بالنَّفْس التي أخذها من طبيعة آدم، وجعلها واحداً معه، والنَّفوس التي كانت في السَّجن، أصعدها معه كعظيم رحمته، والعدو الأخير الذي هو الشَّيطان، قيَّده بالقيود والسَّلَّاسل. فلمَّا رآه البوابون الأشرار، والقوَّات الكائنة في الظُّلمة، هربوا، ولم يطيقوا الثُّبوت، لأنهم عرفوا قوَّته وكثرة جبروته. فكسَّرَ الأبواب الثُّحاس بسُلطانته، والمتاريس الحديد سحقها، وأمَّا المسبِّبون إذ رأوا الرَّبَّ يسوع مُخلِّص نفوسهم،

صرخوا بصوت قائلين: 'حسناً جئتَ أيها المنقذ عبيده'. ثم أمسك أولاً بيد آدم، فاجتذبه وأصعده، وبنيه معه، وأدخلهم إلى الفردوس. مسكن الفرح والراحة".

وعلينا الآن أن ندعم هذه النصوص الليتورجية التي تكلمت عن هذا الموضوع، بنصوص أخرى كتابية، ونصوص آبائية أيضاً، لعلنا نستوضح جانباً من هذا الموضوع الغامض.

(٢) نزول المسيح إلى الجحيم في النصوص الكتابية

إنَّ أوَّل حدث نتقابل معه في العهد الجديد، عن خروج ميِّت من أعماق الجحيم، هو عندما وقف الرَّب يسوع أمام قبر لعازر الذي كان قد مات قبل أربعة أيام، وصرخ بصوت عظيم: «لعازر هلمَّ خارجاً» (يوحنا ١١: ٤٣). فعادت نفس الميِّت من الجحيم، وأتحدت بجسده، فخرج الميِّت من القبر، ملفوفاً بكفانه! فانذهل الجميع، إذ لم يعاينوا قط، مثل هذا من قبل.

وهكذا عادت نفس الميت من أعماق الجحيم بصوت ابن الله. وكان يمكن للرَّب وهو أمام الموتى في قبورهم، أن ينادي بذات الصَّوت "هلمُّوا خارجاً"، فيخرج الأموات من قبورهم كما خرج لعازر، ولكن الرَّب اختصَّ لعازر وحده بالنِّداء، مرجئاً نداءه بالخلاص والنَّجاة لكلِّ من يقبل من الموتى، عندما ينزل إليهم في الجحيم بالصَّليب.

وإن كان الرَّب قد فعل هذا قبل موت الصَّليب، فلماذا الصَّليبُ إذًا؟

إنَّ الهدف الأساسي الذي كان نصب عيني الرَّب، ليس فقط هو إخراج النفوس من الجحيم، بل وأيضاً الكرازة لهم بالفداء وقبول الإيمان به، قبل خروجهم. أمَّا لعازر فكان يعرف المسيح له المجد، بل وعاشه ويؤمن به، هو وأخته أيضاً مرثا ومريم. وهذا الحَدَث يُثبت لنا سلطان الرَّب على الجحيم، بكلِّ متاريسه النَّحاسية، وقوَّات الظُّلْمَة المحدقة به. وسلطانَه الإلهي على النفوس المحبوسة فيه، حتى قبل أن يجتاز الصَّليب.

ويذكر القديس بطرس الرسول في رسالته الأولى، نصِّين أساسيين، حول هذا الموضوع:

النَّصُّ الأوَّل: «فإنَّ المسيح أيضاً تألم مرَّة واحدة من أجل الخطايا، البار من أجل الأئمة، لكي يقربنا إلى الله، مُماتاً في الجسد، ولكن محيي في الرُّوح، الذي فيه أيضاً ذهب فكرز للأرواح التي في السَّجن، إذ عصت قديماً، حين كانت أناة الله تنتظر مرَّة في أيام نوح، إذ كان الفلك يُبنى، الذي فيه خلصَ قليلون، أي ثمانين أنفس بالماء» (١ بطرس ٣: ١٨-٢٠).

النَّصُّ الثَّاني: «... الذين سوف يعطون حساباً للذي هو على استعداد أن يدين الأحياء والأموات، فإنه لأجل هذا بُشِّر الموتى أيضاً، لكي يُدانوا حسب النَّاس بالجسد، ولكن ليحيوا حسب الله بالرُّوح» (١ بطرس ٤: ٥-٦).

أي أنَّ نفسَ المسيح قد ذهبت إلى السَّجن السُّفلي، أي إلى الجحيم، لإعلان الخلاص لجميع الرَّاقدِين من الأجيال السَّابقة. والقديس بطرس الرسول لم يوضِّح إن كان جميع هؤلاء قد خلصوا، أم بعضهم فقط. ولكن ما يعنيه القديس بطرس هو أنَّ فداء المسيح كان عظيماً جدًّا، لدرجة أنه عُرض أيضاً على أولئك العصاة في الأجيال السَّابقة.

ويذكر القديس بولس الرسول أيضاً، نصًّا في غاية الأهمية في هذا الموضوع.

النَّصُّ: «إن كنتم قد سمعتم بتدبير نعمة الله المعطاة لي لأجلكم، أنه بإعلان عرفني بالسِّر (سرِّ المسيح) ... لي أنا أصغر جميع القديسين، أعطيت هذه النعمة، أن أبشِّر بين الأمم بغنى المسيح الذي لا يستقصى، وأنبئ الجميع في ما هو شركة السِّر المكتوم منذ الدهور في الله (الآب) خالق الجميع بيسوع المسيح، لكي يُعرف (هذا السِّر) الآن عند الرُّؤساء والسَّلاطين في السَّمَاوِيَّات، بواسطة الكنيسة، بحكمة الله المتنوعة، حسب قصد الدهور الذي صنعه (الآب) في المسيح يسوع ربِّنا» (أفسس ٣: ٩-١١).

فواضح هنا، أن للكنيسة دوراً هاماً وسرياً، لدى السَّمائِيِّين أيضاً كما هو للأرضِيِّين تماماً. وإنَّ تعبير «أنيرُ الجميع» يعني أنَّ القديس بولس قد حاز الاستنارة التي تؤهِّله لمعرفة سرِّ المسيح والكنيسة، فأصبح عليه مسؤولية أن يُنير الجميع أيضاً، ليعرفوا هذا السرَّ، لكي تصير للجميع شركة في هذا السرِّ الذي كان مخفياً في الله منذ الدهور، ثمَّ أعلنه لنا في المسيح.

وإنه من العجيب حقاً أن نعرف أن نصّاً ليتورجياً من القُدَّاس المرقسي، يورد هذا المعنى بالتَّمام، حيث تقول صلاة شكر بعد التناول: "أنعمتَ لنا بالحرية، وأعطيتنا من هذا الطَّعام غير المائت السَّمائي، وأظهرتَ لنا كلَّ هذا السرِّ المخفي منذ الدهور والأجيال، لكي تظهر الآن حكمتك المتنوعة، للرؤساء والسَّلاطين في السَّماويَّات، من قِبَل الكنيسة"^(٣).

(٣) نزول المسيح إلى الجحيم في بعض كتابات آباء الكنيسة

• يذكر هرماس، في كتابه "الرَّاعي"^(٤)، بأنَّ الرُّسُل والتلاميذ قد ذهبوا هم أيضاً ليكرزوا في الجحيم، ويمنحوا المعمودية لأولئك الذين ماتوا قبلهم^(٥).

• ويتحدَّث القديس إيريناؤس (١٣٠-٢٠٠م)، "أبو التقليد الكنسي"، عن وجود كرازة في الجحيم، وغفران للخطايا، للذين سلكوا ببر وتقوى من نحو القريب. فيقول:

[... لذلك نزل الرَّبُّ إلى المواضع التي تحت الأرض، ليستريحهم هم أيضاً بمجيئته، وبأنَّ هناك غفراناً للخطايا

للذين يؤمنون به. فالذين كانوا ينتظرونه آمنوا به ... الأبرار والأنبياء ورؤساء الآباء]^(٦).

ويضيف بقوله، بأنَّ المسيح أتى أيضاً:

[لأجل جميع النَّاس قاطبة، الذين منذ البدء (...). خافوا الرَّبَّ وأحبَّوه، وسلكوا ببر وتقوى من نحو القريب،

وأيضاً اشتهاوا أن يروا المسيح، ويسمعوا صوته]^(٧).

• ويرى العلامة كليمنديس الإسكندري (١٥٠-٢١٥م)، ومعه العلامة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م) أنَّ المسيح نزل إلى الجحيم، ليكرز فيه بالخلاص للذين يقبلون التَّوبة.

فيقول العلامة كليمنديس الإسكندري، إنَّ المسيح قد ذهب إلى الجحيم ليكرز هناك بالإنجيل، وكان يخاطب الموتى فيه، داعياً إياهم إلى التَّوبة، كما سبق ودعا للتَّوبة الأحياء الذين على الأرض. وأنَّ الرَّبَّ كرز بنفسه لنفوس العبرانيين (!) الذين

٣- إنَّ رسالة أفسس كَتَبَهَا الرَّسُول بولس سنة ٦٢م، لما كان سجيناً في روما منذ سنة ٦٠م. وهناك مصادر كنسيَّة مختلفة، سواء ذات تاريخ مبكر، أو تعود إلى بداية القرون الوسطى، قد رجَّحت تاريخ وصول القديس مرقس إلى الإسكندرية فيما بين سنة ٣٩م وسنة ٤٩م، أو ٥٠م.

Cf. Pearson, B.A., *Earliest Christianity in Egypt: Some Observations, in the Roots of Egyptian Christianity*, edited by B.A. Pearson and J.E. Goehring (Philadelphia: Fortress Press, 1986), p. 139, n. 30.

حيث بقي القديس مرقس في الإسكندرية بعض الوقت، ورسم حنانيا (أو إنيانوس) أسقفاً مع قسوس وشمامسة، وترك لهم نصَّ القُدَّاس الإلهي، ثمَّ غادر إلى روما. وبعد استشهاد الرُّسوليين بطرس وبولس سنة ٦٧م، عاد القديس مرقس إلى الإسكندرية مرَّةً أُخرى، ليرى أنَّ الكنيسة التي أسَّسها قد ازدهرت. حيث نال إكليل الشَّهادة سنة ٦٧م، أو ٦٨م.

فهذه النُّص الليتورجي السابق ذكره، منقول عن النُّص الكتابي في رسالة أفسس، أم أنَّ النُّص الكتابي في هذه الرُّسالة، أحذه القديس بولس عن النُّص الليتورجي؟!.

٤- "هرماس" هو أحد رُعاة كنيسة روما، وقد أُلِّف كتابه المعروف باسم "الرَّاعي"، فيما بين سنة ١٤٠م وسنة ١٥٠م، في الوقت الذي كان فيه شقيقه البابا بيوس الأوَّل يدير شؤون الكنيسة. وقد لاقي كتاب "الرَّاعي" هرماس رواجاً كبيراً، بل ومنقطع النَّظير، في الكنيسة الأولى. إذ أنَّ إيريناؤس وترتليانوس وكليمنديس الإسكندري وأوريجانوس، كانوا يضعونه في مستوى الكُتُب المقدَّسة. وقد ذكر يوسابيوس أنَّ كتاب "الرَّاعي"، يُتلى في بعض الكنائس، ويُستخدم في تعليم الموعوظين، أو طالبي العماد.

5- Lib. III, Simil., IX, xvi, 5, PG., t. II, col. 995-996.

الكتاب الثَّالث، التشبيه الثَّاسع، الفقرة ١٦

6. Adv. Haer. IV, xxii.

7. Adv. Haer., IV, xxvii, 2.

كانوا في الجحيم، ثم نزل الرُّسُل أيضاً إلى الجحيم (بعد استشهداهم طبعاً) ليكرزوا لنفوس الذين من الأمم^(٨). ويذكر أيضاً أن الأرواح التي في السَّجن، لم ترَ هيأته، ولكنها سمعت صوته^(٩).

أمَّا العلامة أوريجانوس فيقول: إنه كما يذهب الأطباء إلى منازل المرضى، فالمسيح قد ذهب إلى الجحيم من أجل خلاص الخطاة^(١٠). ويُشير إلى ما ورد في رسالة القديس بطرس الرسول الأولى (١ بط ٣: ١٩)، والتي تذكر أن نفس المسيح قد ذهبت وخطبت نفوس الذين في الجحيم، وغيَّرت نفوس الذين قبلوه^(١١). كما تكلم العلامة أوريجانوس أيضاً عن التبشير في الجحيم، في شرحه لإنجيل القديس يوحنا^(١٢).

• وهناك عظة للبابا أناسيوس الرسولي (٣٢٨-٣٧٣م) تُقرأ في السَّاعة الثالثة من يوم الجمعة العظيمة، نسمع فيها:

[إن لم يكن الرب قد شارك البشريَّة في آلامها، فكيف يخلص الإنسان؟ لأنَّ الموت سقط تحت أقدام المسيح، وانهمز وهو مسي مضطرب، والجحيم مع قوَّاته رجع إلى خلف لما سمع صوت الرب ينادي الأنفس قائلاً: اخرجوا من وثاقكم أيها الجالسون في الظلمة وظلال الموت، اخرجوا من وثاقكم، أنا أبشركم بالحياة، لأني أنا هو المسيح ابنُ الله الأبدى].

• ويرى القديس غريغوريوس التزينزي (اللاهوتي) (٣٢٩-٣٨٩م)، أن المسيح في الجحيم قد خلَّص كلَّ النفوس المحبوسة فيه، والتي آمنت به^(١٣). فيقول مثلاً:

[لقد نزل إلى الجحيم، ولكنَّه رفع النفوس التي فيه، وصعد بها إلى السَّماء!] (عظة ٢٩: ٢٠).

• ويتحدَّث القديس إبيفانيوس (٣١٥-٤٠٣م) في عظته على سبت الفرح، فيقول:

[... فكَّ المسيح الرِّباطات الأزليَّة، وعتق الغرباء والمخالفين ... اليوم تمَّ الخلاص من ناحيتين؛ للذين هم على الأرض، وللذين هم - منذ الدَّهر - تحت الأرض. اليوم خلاصُ العالم بأسره؛ المنظور وغير المنظور ... نزل الإله من السَّماء إلى الأرض، ومن الأرض إلى ما تحتها. أبواب الجحيم تُفتح ... فتهلَّلوا أيها الرَّاقدون منذ الدَّهر، أيها الجالسون في الظلمة وظلال الموت، استقبلوا النُّور البهي بفرح ...

ولكن ماذا سيحدث عندما ينزل المسيح إلى الجحيم؟ أنزول الإله إلى الجحيم يخلص الجميع بدون استثناء؟ لا، لأنه كما على الأرض، هكذا أيضاً هناك، يُخلص الذين آمنوا به ...

هو لم يقدم محبته للبشر الذين كانوا يعيشون معه على الأرض فقط، لكن رأفته شملت حتى كلَّ المقيدين في الجحيم السُّفلي. هؤلاء الذين كانوا ينتظرون، جالسين في الظلمة وظلال الموت. وهكذا افتقد الله الكلمة، بتجسده، كلَّ البشر الأحياء بالجسد على الأرض. أمَّا النفوس التي ذهبت إلى الجحيم، تاركة أجسادها، فقد افتقدتها بنفسه الإلهية بدون جسد، ولكن ليس بدون ألوهيته^(١٤).

8. Stromata, vi, 6 ; PG., t. IX, col. 265-276 ; Cf. ii, 9 ; PG., t. VIII, col. 980.

9. Ancient Christian Commentary on Scripture, New Testament XI, U.S.A., 1947, p. 107.

10. In libre Regum, hom. Ij. ; PG., t. XII, col. 1025.

11. Contra Celsum, ii, 43. ; PG., t. XI, col. 865.

12. GCS 10, fragment Ixxix, t. IV, p. 546.

وحدير بالذكر هنا، أن العلامة أوريجانوس وحده كان يؤمن بفكرة الخلاص الشَّامِل أو الخلاص الجماعي الذي تمَّ بواسطة المسيح عند نزوله إلى الجحيم، وذلك دوناً عن جميع آباء الكنيسة.

Haer., LXIX, lxii. ; PG., t. XLII, col. 305-308.

13. Orat., xlv, 24. ; PG., t. XXXVI, col. 657.

١٤- عظة عن "سبت الفرح" للقديس إبيفانيوس أسقف قبرص، ترجمة دكتور جوزيف موريس فلتنس، الطبعة الثانية، مارس ٢٠٠٨م، ص ٢١، ٢٢، ٣٥ تجدر الإشارة إلى أن القديس إبيفانيوس رئيس أساقفة جزيرة قبرص، كان مناصراً قوياً لتعليم القديس أناسيوس الرسولي ضدَّ الأريوسيين. وقد نجح في عزل كنيسة قبرص عن كنيسة أنطاكية، التي كان معظم آباءها غير مؤيدين لمصطلح "الهومو أوسوس"، أي مساواة الابن للآب في

• وهناك أيضاً عظة للقديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م)، تُقرأ في السَّاعة الثانية عشرة من يوم الجمعة العظيمة، يقول فيها:

[... نزل (المسيح) إلى الجحيم بنفس عاقلة، أخذها من الطبيعة البشرية، ووحدتها مع طبيعته الإلهية، وكرَّزَ لكلِّ الأرواح التي أمسكها الموت في ذاك الموضع، بسبب التَّعدي الأول الذي لصق بجنسنا، بسبب الخطيئة. فضلاً عن أنه هياً لنفسه المواضع السُّفلية، صائراً واحداً مع النَّفس البشرية، مشابهاً للنفوس التي تسكن هناك بدون أجسادها، ولكن نفسه كانت للإله الحقيقي، كاسراً شوكة الموت، ساحقاً إيَّها، تلك التي وحزت البشرية. وحطَّم الشيطان الذي امتلك سلطان الموت، وقيدته، وسلَّمه ليد كلِّ إنسان سيُجرِّبه الشيطان. وسبى الجحيم، وأخرج منه كلَّ النَّفوس التي رقدت حتى نزوله إلى هناك. وخلصهم من قبضة الموت والجحيم، ورفعهم معه إلى العُلُو].

ولاحظ هنا أنَّ الأحداث التي واكبت ظهور المسيح على الأرض، وكرازته بالخلاص للأحياء، تكررَّت هي تقريباً للأموات الذين في الجحيم. فللأحياء كانت الكرازة قَبْل الصَّليب، وللأموات كانت الكرازة لهم من قَبْل الصَّليب، لكي يشمل الخلاص بالصَّليب، كلَّ من يَقْبَل من الأحياء والأموات معاً.

• ويذكر القديس كيرلس الكبير عامود الدِّين (٤١٢-٤٤٤م) في شرحه لرسالة بطرس الرسول الأولى (١٨:٣-٢٠)، أنَّ النَّفوس التي آمنت به فقط، هي التي خَلَصَتْ. فيقول:

[إنه (أي القديس بطرس الرسول) ينقض بذلك (أي بهذه الآيات) اعتراض القائلين: إنَّ كان التَّجسُّد مفيداً إلى هذا الحد، فلماذا لم يتجسَّد المسيح منذ زمان كثير؟ هوذا «قد ذهب فكرز للأرواح التي في السَّجن» لكي يحرِّر كلَّ الذين كانوا سيؤمنون به لو كان قد ظهر في زمانهم متجسِّداً للذين على الأرض. فهؤلاء تعرَّفوا عليه جيِّداً لما ظهر لهم في المواضع السُّفلية، وانتفعوا من ظهوره. فقد مضى المسيح بالنَّفس، وكرز للذين في الجحيم، ظاهراً كنفس مع النَّفوس.

وعندما رآه بوابو الجحيم هربوا، وتكسَّرت الأبواب التُّحاسية، وانفكَّت السُّلاسل الحديدية. وصرخ الابن الوحيد بسُلطانه إلى كلِّ النَّفوس التي صار شريكاً لها في الآلام بحسب التَّدبير، قائلاً للمقيدين بالسُّلاسل 'أخرجوا، وللذين في الظُّلْمَة 'أظهروا'.

وبكلمات أخرى، فقد كرز المسيح لأولئك الذين في الجحيم أيضاً، لكي يُخلص الذين كانوا سيؤمنون به لو كان ظهر لهم متجسِّداً في زمان حياتهم. فهؤلاء قد تعرَّفوا عليه تماماً حتى وهم في الجحيم. فإنَّ سخاء تدبيره من نحن، يفوق الطبيعة، ويفوق التَّسليم. فكما أنَّ المسيح في ظهوره جسدياً قد دعا بالسُّوية جميع الذين على الأرض، والذين آمنوا انتفعوا؛ هكذا أيضاً بنزوله إلى الجحيم، قد حرَّر من رباطات الموت، الذين آمنوا به وعرفوه^(١٥).

ويشرح القديس كيرلس الكبير أمراً مهماً أيضاً، يؤكِّد ما سبق ذكره للتو، وهو أنَّ كرازة المسيح للذين في الجحيم بالخلاص، لم يستفد منها كلُّ المحبوسين هناك، فيقول في ذلك:

[أمَّا نفوس الذين عبدوا الأصنام، وساروا وراء أهوائهم الفاسدة، فكانت مثل عمياء، بسبب شهواتها الجسدية، لا تستطيع أن تنظر إلى إشعاع ظهوره الإلهي، لكي تعرَّف على الذي ظهر في المواضع السُّفلية، لكي يُحرِّر الجميع]^(١٦).

وهنا ينبغي أن نلاحظ أنَّ هؤلاء الذين لم يقبلوا الخلاص كما يذكر القديس كيرلس الكبير، هم الذين ينطبق عليهم قولُ

الجوهر. وغير موافقين آنند على قرارات مجمع نيقية.

15. Ancient Christian Commentary on Scripture, op. cit., p. 107 ; Frag. In epist. I Petri, iii, 19. ; PG., t. LXXIV, col. 1013-1016.

16. J.A. Cramer, ed., Catena in Epistulas Catholicas, Oxford, Clarendon, 1840, p. 66. Cited by Ancient Christian Commentary on Scripture, p. 108.

الإنجيل المقدس: «الثور يضيء في الظلمة والظلمة لم تُدركه» (يوحنا ١: ٥). وأيضاً: «أحبّ النَّاسُ الظُّلْمَةَ أكثر من النُّور، لأنَّ أعمالهم كانت شريرة» (يوحنا ٣: ١٩)، وأيضاً: «أفعالهم لا تدعهم يرجعون إلى إلههم» (هوشع ٥: ٤). وفي المقابل، فإن الذين قبلوا الخلاص بكرازة المسيح في الجحيم، لم يكونوا الآباء والأنبياء والصّديقين من شعب الله وحدهم، بل وأيضاً الذين عاشوا قبلاً على الأرض حياة صالحة، ولكنهم لم يسمعوا عن الإله الحقيقي.

وهكذا يتفق القديس كيرلس الكبير عامود الدّين، مع القديس إيريناؤس أبو التّقليد الكنسي، في هذا الموضوع. إلا أنّ تعليم القديس كيرلس الكبير في هذا الموضوع، أكثر عمقاً ووضوحاً.

ولكن القديس كيرلس الكبير لم يتحدّث عن كيفية خلاص الذين ماتوا على مدى القرون التّالية بعد صعود المسيح إلى السّماء، ولم يكونوا قد سمعوا عنه. وهذه نقطة جوهرية في موضوعنا. ولعلّ هذا هو عمل الكنيسة، الذي تكلم عنه القديس بولس الرّسول في رسالة أفسس. ولدنا قول للقديس إبيفانيوس (٣١٥-٤٠٣ م) يدعم هذا الأمر، حين يتحدّث في عظة له في سبت الفرح عن كرازة يوحنا المعمدان بالمسيح في الجحيم، فيقول:

[... هناك أيضاً ذلك الفائق يوحنا، الأعظم من كل الأنبياء، جالساً في ظلّمة الجحيم، كما لو كان في رحم أمّه المظلم (قبل ولادته) يركز بالمسيح لكلّ الذين في الجحيم، وهو السّابق والكارز للأحياء والأموات معاً. وعندما قطعت رأسه، أرسل من سجن هيرودس إلى سجن الجحيم، إلى الأبرار والمظلومين الرّاقدين منذ الدّهور^(١٧)].

• والقديس ساويرس الأنطاكي (٤٦٥-٥٣٨ م)، يشرح هذا الأمر مقتبساً من أقوال القديس كيرلس الكبير، ولكن بدون أن يشير إليه. فيقول:

[... لم يُنعم بالغرغان على جميع المقيدين هناك، ولكن فقط للذين آمنوا به وعرفوه. فقد عرفه الذين نَقَّوا شرورهم بالأعمال الصّالحة في الزّمن الذي عاشوا فيه بالجسد. لأنه قبل ظهور المسيح للذين تحت الأرض، كان الجميع - بمن فيهم الذين سلكوا في بر - مقيدين برباطات الموت، ومنتظرين مجيئه، إذ كان طريق الفردوس مغلقاً لهم، بسبب مخالفة آدم.

وأما أنّ ليس جميع الذين كانوا في المواضيع السّفلية استفادوا من نزول المسيح هناك، فهذا يوضّح: أولاً (٤٧٤ م) غريغوريوس اللاهوتي (٣٢٩-٣٨٩ م) في عظته عن الفصح، إذ يُقدّم المسألة بصفتها جديدة بالبحث، ثمّ يُعطي لها الحل الصّحيح بالبرهان، فيقول:

”... وإن نزل إلى الجحيم، انزل معه، واعرف أيضاً الأسرار التي هناك، وما هو تدبير ونتيجة نزوله مرّتين^(١٨)، هل بظهوره يُخلّص الجميع بلا تمييز، أم أنه (يُخلّص) هناك أيضاً الذين يؤمنون دون سواهم؟“ (عظة ٤٥: ٢٤).

وثانياً (٥٤) إغناطيوس الثيوفورس^(١٩) (٣٥-١٠٧ م) والشّهيد، الذي يقول:

”كيف نستطيع نحن أن نحيا بدون ذلك الذي كان الأنبياء - وهم متعلّمون من الرّوح القدس - ينتظرونه كمعلّم؟ ولذلك فالذين كانوا ينتظرونه بصدق، لما ظهر، أقامهم من بين الأموات“ (إلى مغنيسيا ٩: ٢)

وبالاختصار^(٢٠)، كما أنّ المسيح ظهر بالسّوية لكلّ من على الأرض، والذين آمنوا به انتفعوا؛ كذلك بنزوله إلى الجحيم قد حرّر من رباطات الموت الذين آمنوا به وتعرّفوا عليه. وأمّا نفوس عبدة الأوثان والذين عاشوا في البطر والسُّكر وأعمال العهارة المحرّمة، فبسبب شهواتها الجسدية، تكون مثل عمياء، فلا تحتل إشعاعات ظهوره الإلهي، لكي تتعرّف بصدق على الذي ظهر في المواضيع السّفلية لكي يجرّ الجميع - على قدر ما هذا يرجع إليه - ويكرز

١٧- عظة عن ”سبت الفرح“ للقديس إبيفانيوس أسقف قبرص، مرجع سابق، ص ٣٤

١٨- أي نزوله إلى الأرض وإلى ما تحت الأرض.

١٩- أي حامل الإله.

٢٠- ما يلي من باقي القول للقديس ساويرس الأنطاكي، هو ما يقوله القديس كيرلس الكبير عامود الدّين (٤١٢-٤٤٤ م)، كما سبق القول.

للكل علانية...^(٢١).

• ويقارن القديس يوحنا الدمشقي (٦٧٥-٧٤٩م) بين كرازة المخلص في الجحيم، وكرازته على الأرض، قائلاً بأنّ الأموات لم يكونوا أقلّ حظاً من الأحياء^(٢٢)، إذ نالوا الخلاص بعيداً عن بر العهد القديم، إلا أنّ هذا الخلاص، كان فقط لأولئك الذين عاشوا حياة طاهرة نقيّة على الأرض^(٢٣).

هذا هو نفس الفكر، الذي يقول به القديس إيريناؤس، والقديس كيرلس الكبير، حينما ذكر هذا الأخير أنّ الذين استعبدوا لشهواتهم كانوا كمثل عميان، لم يقدرُوا أن يقبلوا المسيح، ليخلصوا. وفي هذا الأمر يتفق كلُّ آباء الكنيسة الشرقيّة.

• ويدعم هذا الرأي ما يقوله ثيوفيلاكوس Theophylact (القرن الحادي عشر) الذي يقول: إنّ المسيح قد كرز في الجحيم، ولكن الذين نالوا الخلاص، هم أولئك الذين عاشوا على الأرض حياة فاضلة^(٢٤).

وهنا يلزمنا أن نتوقّف قليلاً، لكي نوضّح أنّ جميع الآباء يتفقون على وجود كرازة في الجحيم، وأنّ الغالبية العظمى من الآباء، ولاسيما الشرقيين منهم، قالوا بوجود فرصة للخلاص في الجحيم لنفوس الذين عاشوا حياة صالحة على الأرض، حتى للذين لم يكونوا من شعب الله. وهو ما رأيناه في أقوال الآباء الشرقيين السابق ذكرهم. ففرصة الخلاص هذه، هي حتماً قائمة أيضاً للذين عاشوا على الأرض حياة صالحة، بعد صعود المسيح إلى السماء، ولم يسمعوا عنه، وعن خلاصه. إذ تبقى لهم فرصة في الجحيم، لكي يقبلوه لهاً ومخلصاً وفادياً. وهذا هو عمل الكنيسة في السماء.

وأما آباء الكنيسة الغربيّة، فقد اختصوا هذا الخلاص الذي أكمله المسيح في الجحيم بالبطاركة والأنبياء والأبرار والصدّيقين من شعب الله فقط، استناداً على إيمانهم السابق، إذ ماتوا ولم ينالوا المواعيد. فهذا هو الفكر الذي ساد عند معظم آباء الكنيسة الغربيّة.

وهنا، وبعد كلّ ما سبق ذكره، أليس غريباً حقاً أن يتسرّب هذا الفكر الغربي إلى بعض نصوص صلواتنا الليتورجية في الشرق؟

* * *

• يسير هيبوليتس الروماني (١٧٠-٢٣٥م)، على نهج اللاهوت الغربي الذي يقول بأنّ المسيح كرز لنفوس القديسين فقط^(٢٥). وهو نفس ما تقول به الدسقولية السريانية، بأن يسوع قد كرز في الجحيم للآباء البطاركة وللقديسين^(٢٦).

• وأما القديس هيلاري (٣١٥-٣٦٧م) أسقف بواتيه، فقد حصر تفسيره في نفس فكر الآباء السابقين له، وفهمهم لما ورد في رسالة القديس بطرس الرسول الأولى (١بط ٣: ١٩)، فيقول:

[بحسب شهادة بطرس الرسول، لما نزل الرب إلى الجحيم، وعظ كارزاً للذين كانوا في السجن، وكانوا قديماً غير مؤمنين في زمن نوح]^(٢٧).

• وفي الغرب أيضاً، ضمّ فيلاستريوس أسقف بريشيا^(٢٨) Philastrius de Brescia (تبيح سنة ٣٩٧م) إلى قائمة المراطقة،

21- J.A. Cramer, *Catena in Epistulas Catholicas*, Oxford, Clarendon, 1840, p. 67-68.

22- *De fide orthodoxa*, iii, 29. ; PG., t. XCIV, col. 1101.

23- *De his qui in fide dormierunt*, xiii. ; PG., t. XCV, col. 257.

24- *Com. In I Pet.*, III, 19. ; PG., t. CXXV, col. 1232.

25- *De Christo et antichristo*, xxvi. ; PG., t. X, col. 748.

26- xxvi, *Texte und Untersuchungen, N.F.*, t. X, 2, p. 145.

27- *Tract. In Psal.* cxviii, xi, 3. ; PL., t. IX, col. 572, 563.

كلّ الذين يقولون بأنّ المسيح نزل إلى الجحيم، وبشّر كلّ النفوس، حتى يخلص كلّ من يؤمن به، فيقول: [... وهناك هراطقة آخرون، يقولون إنّ الرّب نزل إلى الجحيم، وبشّر الجميع هناك بعد موته، لكي يعترفوا به، فيخلصوا]^(٢٩).

• وقد أيد القديس أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠ م) رأي فيلاستريوس السّابق ذكره، وضمّ - على غراره - إلى الهرطقات، الرّأي الذي يقول بإمكانية التّوبة والخلاص للعصاة عند نزول المسيح إلى الجحيم! فيقول: [... وهراطقة أخرى تقول: إنه لما نزل المسيح إلى الجحيم، آمن به الذين لم يكونوا يؤمنون به. حيث ترى هذه الهرطقة أن جميعهم حينئذ خلصوا]^(٣٠).

وحينما سأل الأسقف إفوديوس Evodius القديس أغسطينوس، من هم الأرواح التي - بحسب القديس بطرس الرّسول - قد افتقدها المسيح في السّجن، وبشّرها؟ إذ كان إفوديوس يظنّ بأنّ المسيح قد خلص جميع الأرواح التي كانت في السّجن، حتى أنّ الجحيم أصبح فارغاً. وهو ما لم يوافق عليه القديس أغسطينوس، إذ رأى أنّ هذا الشّرح يؤدي إلى الوقوع في مشكلة. فيتساءل القديس أغسطينوس قائلاً: لماذا قصر بطرس الرّسول نزول المسيح إلى الجحيم، وبشارته هناك، على الذين عصوا أيام الطّوفان، أي المعاصرين لنوح، وليس على الجميع؟ وإذا كان قد بشّر الجميع، لكي يعرف الجميع الإنجيل، أفلا يجب أيضاً أن كلّ الذين ماتوا بعد مجيئه بدون أن يعرفوه، أن يبشّروا هم أيضاً بالإنجيل، ويتغيروا؟ وهذا الرّأي - بحسب اعتقاد القديس أغسطينوس - مرفوض ومضاد للإيمان^(٣١).

وبسبب هذه المصاعب التي يراها أغسطينوس في شرح آية القديس بطرس الرّسول، اعتقد أنّ الكرازة المقصودة، ليست هي كرازة المسيح في الجحيم، بل كرازته للعصاة في أيام نوح. وقد قيل عن أرواحهم إنها في "سجن"، لأنها كانت تقبع في غياهب الظلمة والجهل. فالمرثّل حينما قال: «أخرج من الأسر نفسي، لتعترف لاسمك» (مزمو ٨: ١٤١)، ألم يكن يتكلّم عن سجن نفسه هو، وليس عن سجن الجحيم؟ لأنه منذ القديم، كان الله الكلمة يُستعلن للإنسان، فالذي تحدّث مع آدم وحواء، والذي كلّم قايين، هو نفسه الذي تكلم مع جيل الطّوفان من بعدهم.

فيرى القديس أغسطينوس، أنه يمكننا هنا أن نأخذ ما ورد في هذه الآيات السّابقة بالمعنى الرّوحي، وليس الحرفي، فيقول: [لا يترتب على ذلك بالضرورة أننا ينبغي أن نفهم أنّ المقصود هنا هو الموتى الذين خرجوا من الجسد. فالأموات هم غير المؤمنين، وذلك بحسب ما ورد في إنجيل القديس متى «دع الموتى يدفنون موتاهم» (متى ٨: ٢٢)، أو ما ورد في إنجيل القديس يوحنا «تأتي ساعة وهي الآن، حين يسمع الأموات صوت ابن الله، والسماعون يحيون» (يوحنا ٥: ٢٥)]^(٣٢).

إلا أنّ شرح القديس أغسطينوس، يُحمّل بشدّة على معاني الكلمات، وعلى مضمون الآيات. لأنّ دينونة الأحياء والأموات لا تعني أبداً دينونة الأبرار وغير الأبرار، فالرسالة للعصاة في السّجن، لا يمكن أن تؤخذ على أنّها استعلان الكلمة في حقبة نوح، ولكنّها تعني في الحقيقة نزول نفس المسيح إلى الجحيم بعد موته. ففي (١ بطرس ٣: ١٨) تكلم عن الموت الفدائي

فهرس لخصر الهرطقات سنة ٣٨٤ م.

29. *Liber de haeresibus*, cxxv. ; *PL.*, t. XII, col. 1250-1251.

30. *De haeresibus*, lxxix. ; *PL.*, t. XLII, col. 4.

ولاحظ هنا، أنّ الذين سمعوا عن المسيح ولم يؤمنوا به وهم على الأرض، لن يؤمنوا به حينما يذهبون إلى الجحيم. فما يقوله القديس أغسطينوس لم يقل به آباء الكنيسة الشّرقية، باستثناء العلامة أوريجانوس، الذي كان يؤمن بفكرة الخلاص الشّامل أو الخلاص الجماعي الذي تم بواسطة المسيح عند نزوله إلى الجحيم.

31. *Ep.*, clxiii. ; *PL.*, t. XXXIII, col. 708.

وطبعاً فإنّ كلام القديس أغسطينوس هنا، مضاد لما يقول به القديس كيرلس الكبير (انظر ص ٦).

32. *Ep.*, clxiv. ; *PL.*, t. XXXIII, col. 709-718.

ليسوع، وفي (١ بطرس ٣: ٢١، ٢٢) تكلم عن قيامته وصعوده إلى السماء، وجلسه عن يمين أبيه. وعلى ذلك فإن حديثه عن الزياراة في السحن، والذي يقع بين هذين الحدثين، لا يمكن توصيفه إلا بأنه التزول إلى الجحيم. وفي الآيتين ١٨، ١٩ فإن الكلمتين εν ᾧ و πνεύματι تعنيان "نفس" المسيح، تمييزاً لها عن جسده، ولا يمكن أن تكون متعلقة بالكلمة غير المتجسد.

إن شرح القديس أغسطينوس ظل مقبولاً من الجميع في الغرب حتى القرن السادس عشر الميلادي، ولكنّه لم يكن معروفاً في الشرق.

ولقد أدان البابا غريغوريوس الكبير (+٦٠٤م) رأي الشمّاس ثيودور والقس جورجوس، الممثلين لبطريك القسطنطينية، واللذان قالوا بأن المسيح في الجحيم خلص كل من اعترف بألوهيته، فيقول:

[... (يدعون) أنه في الجحيم قد خلص جميع الذين اعترفوا به كإله، ونجّاهم من العذابات المستوجبة عليهم].

وهكذا يُحدّ الفكر الغربي من إمكانية الخلاص في الجحيم، ويُقصره على أبرار العهد القديم. إذ يرى هذا الفكر الغربي أن الفقرتين اللتين وردتا في رسالة القديس بطرس الرسول الأولى، لا وجود فيهما للتوبة في الجحيم. أمّا عن لفظة "الكرازة" في الجحيم، والتي يمثلها الفعل اليوناني εικήρυσεν وأيضاً الفعل اليوناني εὐηγγελίσθη فيجب أن تُفهم بمعنى الإعلان بالخروج من الجحيم. كما يجب أن نعرف أيضاً أن النص الكتابي الذي نحن بصددده، هو نص لم يحدّد به القديس بطرس المعنى المقصود بالضبط. ومن ثمّ فمن السهل الاختلاف في تفسيره.

والخلاصة التي يدور حولها الفكر الغربي في هذا الموضوع هي أن كرازة المسيح في الجحيم، لم تكن تعني تحويل غير المؤمنين إلى الإيمان، بل تبكيته قلّة إيمانهم. لأنّ هذه الكرازة المقدّسة، لا يمكن أن تعني سوى استعلان لاهوته، الذي استعلن للكائنين في الجحيم بنزوله العجيب إلى هناك.

* * *

وفي الختام

يوجز الأنبا أنطونيوس (٢٥١-٣٥٦م) أب جميع الرهبان، الأمر كلّه، في مستهل رسالته الثامنة عشرة، بفكر آبائي شرقي أصيل، فيقول:

[اعلموا، يا أولادي الأحياء، أنه من البدء، لما حادت النفس عن الوصية، حصلت المخالفة. وتلك المخالفة صارت جميع النفوس يُمضى بها إلى الجحيم، كما قال الرسول: «إنه بآدم الأوّل كان الموت» (١ كورنثوس ١٥: ٢١-٢٢). وتحتنّ الإله الكلمة، وتجسد منّا بسرّاً لا يُدرك، وأكمل كلّ التدبير لخالصنا. فنزل إلى الجحيم وسباه سبياً واحتذب منه كلّ النفوس المحبوسة فيه، وخلصها من سلطان الشيطان. وحفظ بأمره - لا بسلطان الشيطان - غير المطيعين في الظلمة، إلى يوم الحكم الرهيب. وأصعد الذين يارادهم قد أطاعوا وسمعوا وعملوا بالأوامر الإلهية، إلى السماء حيث الفردوس. وقد كان سبب إصعادهم إلى السماء هو تلك النار غير المرئية، التي هي حرارة الأعمال الصالحة، التي اشتعلت في قلوبهم ... فلا تدعوا قوّة هذه النار تُنزع منكم. لأنّ حروباً كثيرة كائنة لكم من الشيطان بسبب هذه النار المُعطاة لكم من الرّب، لكي ينزعها منكم. لأنه يعلم أنه لا قوّة له عليكم، ما دامت هذه النار معكم وفيكم ... فهذه هي صناعته دائماً؛ أن يقاوم بكل قوّة كل النفوس المتعبدة لله تعبداً حسناً. وهو يُلقى بأوجاع كثيرة مختلفة في النفس ليظفّي تلك النار التي تقيم الفضيلة فيها] (الرسالة ١٨: ١، ٢، ٣).

ويقول الأنبا أنطونيوس أيضاً في رسالته التاسعة عشرة:

[انظروا، يا أولادي الأحياء، إلى محبة الله الكلمة، أنه أصدنا من هوّة الجحيم إلى أعلى السموات. لأنّ السماء العليا، غير السماء المرئية، غير الجو الذي هو الهواء الذي يهبّ بخفته. وجو الهواء، غير هذه الأرض الكثيفة التي نحن

كائنون الآن فيها، وعمّا قليل ننتقل منها. واعلموا أنّ أعمال السماء هي غير أعمال الأرض، وأنّ ثمّ صقع آخر أثقل من هذه الأرض الكثيفة، صعبٌ جداً ومُظلم، وليس فيه شيء من الثور ولا راحة، وهو الذي يُدعى الجحيم. فالتجربة التي أنت علىّ أخيراً، يا أولادي، كادت أن توصلني إلى الجحيم بعينه. لأنّ أعداء الخير، أرادوا أن يلقوني فيه، بكثرة تحيّلهم؛ وعن هذا كان تعبي وجهادي وضيقتي واضطرابي. لكني، أنا المسكين، أشكر إلهي وأمجّده، هذا الذي أنا أخدمه بكلّ قلبي من صغري إلى الآن، وأسمع له، لأنه لم يتخلّ عني بل عضّدي وخلّصني من ظلمة الأعداء، وردّني إلى رفعتي الأولى مرّة أخرى، كما خلّص آدم وأولاده الصّالحين وردّهم إلى رتبتهم الأولى. لأنّه مكتوب: «صعد إلى العلا وسبى سبياً وأعطى النّاس مواهب» (مزمو ٦٧: ١٩، أفسس ٤: ٨) [الرّسالة ١٩: ٦].